الفصل الخامس

انكباب المسلمين على تعلم العلوم ونقلها للآخرين

لكثرة ما سمع الصحابة الكرام الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض على العلم والتعلم ، لدرجة تفضيل العلم على العبادة .

لذلك كله انكبَّ المسلمون الأوائل على حمل أمانة نشر العلم ، بحيث حفظوا آيات القرآن في الصدور ، وحفظوا كلام رسول الله ﷺ في الصدور والسطور ، ووصل بهم الحال إلى درجة أن الواحد منهم كان إذا غاب عن مجلس العلم النبوي لعذرٍ ما ، هرع إلى صاحبه الذي شرفه الله بحضور ذلك المجلس وسأله : ماذا حفظتم اليوم من كتاب الله ومن سنة رسول الله ؟ وهكذا حتى النساء كانت الواحدة منهن إذا عاد زوجها إلى البيت ، تفتح له الباب وتسأله : ماذا حفظتم اليوم من رسول الله ﷺ ؟! .

روى البخاري أن عمر رضي الله عنه قال : كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلته جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .

وظل ذلك الاهتمام بالعلم طيلة فترة حياة رسول الله ﷺ .

حتى إذا ما تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، انشغل المسلمون بالفتوحات وحروب الردة وتوطيد أركان الدولة الإسلامية ،

لكن ذلك لم يكن ليشغلهم عن مسألة العلم ، ومن هنا نفهم ماذا يعني جمع القرآن من الصدور ليدوَّن في السطور ويجمع تحت إشراف كاتب الوحي (زيد بن ثابت) رضي الله عنه ، وضمن عمليات مضبوطة ودقيقة ، وبالتالي بالاشتراك مع أكابر الصحابة وعلى رأسهم الخليفة رضي الله عنهم جميعاً[1] .

ولما آل الأمر إلى الفاروق عمر رضي الله عنه ، اتسعت دائرة الفتوحات ، واضطر المسلمون إلى أسلمة العلوم وضبطها بالمنهج الإسلامي ، بحيث ظهر علم الهندسة والاقتصاد والإدارة والمحاسبة والرقابة والتفتيش والأمن ، لكن بما يناسب تلكم المرحلة .

وهكذا أحدث في عهده ديوان المال ، وهو أول من وضع الديوان في الإسلام ، ورفض رضي الله عنه فكرة تقسيم أراضي الفتوحات على الجند ، وبرر ذلك بهدف استفادة الأجيال القادمة من ذلك ، ووزع بعض الأراضي على المستحقين ، والتفت إلى جانب مهم ، وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، بحيث يأخذ كل واحدٍ اختصاصه ، وقد ورد في كتب السير والتاريخ قوله : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيَّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني!!

وبلغت الدقة في عهده أن أمر بكتابة التاريخ ، لتنضبط أمور الدولة والشعب انضباطاً دقيقاً ، قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : جمع عمر بن الخطاب المهاجرين والأنصار ، فقال : متى نكتب التاريخ ؟

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : منذ خرج النبي ﷺ من أرض

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع : البيان في علوم القرآن ، للمؤلف : ١/ ٦٧ـ٨٣ .

الشرك ، فكتب إلى عمر بذلك ، ووافق عمر رضي الله عنه .

وأما في مجالات الاستقرار والأمن فقد اهتم عمر بتفقد أحوال الرعية ، وإنشاء العسس ـ الشرطة ـ في سبيل الوصول إلى وضع أمني هادئ .

وفي مجالات الهندسة والعمران : اهتم عمر رضي الله عنه بالتخطيط والعمران وشق الشوارع الواسعة ، واتخاذ أماكن عامة : كالحدائق والمساجد ، وكانت له نظرة بعيدة المدى يظهر ذلك في تصرفاته . يروي ابن الجوزي رحمه الله فيقول : لما أذن عمر ببناء البصرة والكوفة خطّوا الشوارع على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين ذراعاً ، والأزقة تسعة أذرع ، والقطائع ستين ذراعاً ، وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وذلك بأمر عمر رضي الله عنه .

وأرسل إلى عامله على مصر ـ عمرو بن العاص ـ رسالةً قال له فيها : ياعمرو! إن الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهي كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوةً لهم ولجميع المسلمين ، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة .

ولما آل الأمر إلى العهد الأموي ثم العباسي ، تطورت مسألة الاهتمام بالعلم بما يناسب المرحلة ، ومن الأمثلة على ذلك :

العمل الكبير الذي قام به (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله ، وهو تدوين السنة الشريفة ، بحيث أرسل إلى جميع الولاة أن اجمعوا من كبار العلماء ما يحفظون من أحاديث .

ولعل أهم ناحيتين في مجال الاهتمام بالعلم ينحصران في :

أولاً ـ تشجيع القائمين على الأمر للعلم وحملته :

وهذا أدى إلى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ، وعلى ضوء أسباب النزول وأسباب ورود الحديث ، لذلك دوَّن (وهب بن منبه) (ت : ١١٠هـ) كتاباً في المغازي ، ودوَّن (عروة بن الزبير) (ت : ٩٤هـ) كتاباً في السيرة النبوية .

وشجع الخلفاء والأدباء والعلماء على عقد حلقات العلم في كل مكان ، وزادوا في الأعطيات للمبدعين والعلماء ، وأظهروا احتراماً لا مثيل له للعلماء ، وعقدت المناظرات بين العلماء وأمام الناس ، كمناظرة سيبويه والكسائي ، ومناظرة الأصمعي والكسائي .

وهذا النشاط في التدوين والتعلم والتعليم يعود سببه إلى الاستقرار والطمأنينة اللذين سادا في بداية القرن الثاني للهجرة ، وانفتاح المسلمين على حضارات الآخرين كالفرس وغيرهم .

ولعل الفضل الأكبر يعود إلى اهتمام الخلفاء بالعلم ، فقد أمروا بتأسيس المدارس والمكتبات .

يروي الإمام أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمهما الله فيقول : ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم ، إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين (ت : ١٩٨هـ) ، والمأمون (ت : ٢١٨هـ) لسماع الموطأ على مالك رحمه الله[1] .

وكان الخلفاء يجلسون في مجالس العلماء والفقهاء ، ليستمعوا إلى مشاكل الشعب من خلال حركة العلم وما إلى هنالك .

ويعتبر العلماء المحققون عصر المأمون هو العصر الذهبي الناشط

---

(١) للتوسع يراجع : تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي : ٢٩٤ .

الواعي للعلوم ، وذلك بسبب اهتمام المأمون بذاته بالعلوم ، فقد كان شديد الحرص على التعلم والتعليم ، وهكذا انتشرت حركة التدوين والترجمة والتأليف ، وصار الأمر على حدٍّ تعبير ابن خلدون : فكثرت التآليف العلمية ، والدواوين ، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار .

وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد ، وسائر الأمور المكتبية[1] . وفتح المأمون باب العلم على مصراعيه ، فظهر الاهتمام بكل نواحي العلم، كالطب والرياضيات والهندسة والفلك.

وأرسل البعثات إلى سائر البلاد ليحصلوا على كتب نافعة ، و. . .

أما في قرطبة ، فقد أصبحت في تلكم الفترة مركزاً عظيماً من مراكز العلم والمعرفة ، حيث المدارس التخصصيّة ، والمكاتب الضخمة التي أصبحت مركزاً كبيراً لجمع المراجع والمصادر .

وأما الفاطميون في مصر فقد اهتموا بالعلم ، وشيدوا إلى جانب الأزهر أماكن تستقبل الطلبة .

وفيها مساكن للإقامة ، وأماكن للمطالعة ، وأجرى الفاطميون الأرزاق على طلاب العلم .

وهذا كان حال الأيوبيين وغيرهم .

أما أهم أماكن العلم والتعليم ، فبالنسبة للأطفال والناشئة فقد كان لهم حلقات خاصة بهم ، وكان لهم مستويات تناسب أوضاع عقولهم ، وبالنسبة للكبار لهم حلقاتهم ومجالس العلم التي تناسبهم ، وكانت أهم أماكن رواد العلم هي :

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٣٨٢ .

١ـ المساجد : وأقدمها وأهمها المسجد النبوي ، حيث كان في العهد الأول هو المركز للعلوم كلها ، وفيه تعقد مجالس العلم وتعقد حلقاته ، وحافظ على ذلك حتى العهود المتأخرة ، فذاك الإمام مالك رحمه الله تعالى يحدث الناس بالأحاديث والفقه في مسجد رسول الله ، وذاك الحسن البصري يلتف الناس حوله في المسجد النبوي ، وذلك الخطيب البغدادي يدرس الناس العلوم في المسجد النبوي .

وفي مصر كان الشافعي رحمه الله يدرس في مسجد عمرو بن العاص ، وفي تونس أخذ جامع الزيتونة المركز المرموق في نشر أنواع العلوم ، وظهرت شخصيات كبيرة في هذا المجال ، أمثال أبي البقاء عبد الرحمن بن زياد المعافري (ت : ١٦١هـ) ، وأبي سعيد سحنون التنوخي (ت : ٢٤٠هـ) ، وأصبحت الحالة العلمية فيه على حسب ما وصفه الحشائشي : كان ـ جامع الزيتونة ـ مستبحراً بالعلوم على اختلاف أنواعها ، عقلية ونقلية ، مقاصد ووسائل ، حتى كان يقال إن حذاء كل سارية من غالب سواريه مدرساً ، وفي خزائنه ما ينيف على المئتين ألف مجلد ! !(١) .

أما في المغرب فقد أصبح جامع القرويين منارة لطلاب العلم ، يأتيه الناس من كل حدبٍ وصوب ، حتى كثير من المستشرقين (كالقسيس غربرت دورياق) .

وأما جامع الأزهر : فقد بناه الفاطميون واهتموا بنشر العلم كثيراً ، يقول الإمام المقريزي : . . . وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة ، سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس ، الخليفة العزيز بالله ، في صلة رزق

---

(١) تاريخ جامع الزيتونة : ٣٦ـ٣٧ .

جماعة من الفقهاء ، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد من الرزق الغاض ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجامع الجامع الأزهر[1] .

وأصبح هذا المسجد يشبه الجامعة اليوم ، حيث تدرس فيه جميع العلوم ، من فقه وحديث وتلاوة قرآن وتفسيره ، ونحو وبلاغة وصرف ، ومجالس الذكر والوعظ . . . .

٢ـ المدارس : أسهمت الدولة إلى جانب الأثرياء وأهل الخير ببناء مدارس إلى جانب المساجد ، وذلك بهدف استقبال أكبر عددٍ ممكن من طلاب العلم ، وتكفلوا بالإنفاق الكامل عليهم .

ففي بغداد انتشرت هذه المدارس ، وأوقف لها وقف خيري ، وكان أشهرها النظامية ، وفي قرطبة كثرت المدارس وتوزعت ، وأقبل الطلاب عليها من كل مكان ، وكان أشهرها مدرسة قرطبة ، والتي حوت في داخلها مكتبة فخمة ، بلغ عدد كتبها قرابة (٦٠٠) ألف مجلد ، وكانت تدرس فيها الشعر والنحو والتاريخ وعلم الهيئة والكيمياء والطب و . . .[2] .

٣ـ المكتبات : وأشهرها بيت الحكمة والتي أنشأها هارون الرشيد ، والمكتبة الحيدرية بالنجف والتي أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي .

ثانياً : أثر الترجمة ودورها في انتشار العلوم :

تعود بداية الترجمة إلى (خالد بن يزيد بن معاوية) (ت : ٨٥هـ) والذي أمر بنقل الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية ، لكن الترجمة في عهده اقتصرت على علوم الطب والكيمياء .

---

(١) الخطط المقريزية : ٢٧٣ .

(٢) للتوسع يراجع : الخطط المقريزية : ٢/ ٤٠٠ ، رحلة ابن بطوطة : ٢٠ـ٧٠ .

وقد انتشرت الترجمة في عهد المأمون ، وذلك بسبب أنه كان مولعاً بكتب الفلاسفة القدماء ، وشجع حركة الترجمة ، فظهر بعض المترجمين الكبار ، أمثال (إسحاق بن حنين) ، والمشكلة أن المأمون لم يحصر الترجمة في علوم الطب ونحوها ، إنما شجع على ترجمة الأمور الغيبية والإلٰهيات ، وكان لذلك دور سلبي في التأثير على العقائد ! !

من هنا نقول : إن للترجمة بعض الإيجابيات كالاطلاع على بعض علوم الآخرين ، لكن لها سلبيات كثيرة ، كاختلاط العلوم والعقائد بفلاسفة لا دين لهم ، لذلك ظهرت مسألة خلق القرآن . وما جرَّ ذلك من ويلات ومشاكل على كبار علماء المسلمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره[1] .

لكن هل اكتفى المسلمون بترجمة العلوم فقط ؟ !

أبداً ، فقد ترجموا وأبدعوا وطوروا وهذبوا وابتدعوا طريقة في البحث العلمي القائم على التجربة لم تعرفها الدنيا حتى القرن العشرين ! !

وأهم مجالات العلوم التي أبدع فيها المسلمون :

ـ **الطب** : حيث ألفوا فيه الكتب الكثيرة ، وقاموا بالعمليات الجراحية على المرضى في المستشفيات ، واشتهر بعضهم كالرازي (ت : ٣١١هـ) وابن رضوان (ت : ٤٥٣هـ) وابن سينا (ت : ٤٢٨هـ) ، وكتب أطباء المسلمين أخذت دورها حتى القرون المتأخرة ، ككتاب (الجدري والحصبة) وكتاب (المرشد) و (كفاية الطبيب) و (الشفا) و (القانون) و (التصريف لمن عجز عن التأليف) وغيرهم كثير .

---

(١) للتوسع يراجع : مقالات الإسلاميين للأشعري : ٢/ ١٧٧ ، الفهرست لابن النديم : ٣٥٢ . . ، البيان والتبيين للجاحظ : ١/ ٣٢٨ .

ـ **وفي الرياضيات** : نقل المسلمون الأرقام الهندية (١ ، ٢ ، ٣) ، واستعملوا الكسور ، وكتبوا في ذلك الكتب ، واشتهر منهم (الخوارزمي) مؤسس علم الجبر ، والذي كتب كتاب (الطرح) و (حساب الجبر والمقابلة) ، ودُرّست كتبه في كل أنحاء العالم دهوراً ، وكذلك برع (ابن الهيثم) في علم المساحة ، وكتب كتابه (مجموع الرسائل) . . .

ـ **وفي علم الفلك** : أجروا البحوث القيمة ، ورصدوا النجوم والأفلاك ، وبنوا المراصد ، وكتبوا في ذلك واشتهر منهم (محمد بن موسى بن شاكر) و (عبد الرحمن الصوفي) و (ابن الهيثم) وغيرهم .

ـ **وفي علم الكيمياء** : اكتشف المسلمون التقطير ، وأجروا عمليات الترشيح والتبخر ، وحضروا بعض المركبات كالنيزيك ، واشتهر منهم (جابر بن حبان) و (مسلمة المجريطي) .

ـ **وفي علم الجغرافيا** : درسوا الظاهر وسجلوا المشاهدات ، واهتموا بالرحلات ، وكتبوا كتباً قيمة في ذلك : كخطط المقريزي ، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ، ورحلة ابن بطوطة .

. . . كل هذه العلوم كان لها الدور الكبير في بناء الحضارة الإنسانية ، خاصةً الحضارة الغربية ، حيث انتقلت العلوم الإسلامية إليها عن طريق العرب المسلمين في الأندلس ، وعن طريق الحملات الصليبية[1] .

* * *

---

(١) للتوسع يراجع : الغزو الصليبي للدكتور عبد الحليم محمود : ١٧٤ ، لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان : ٥٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٣/ ٢٠٠ ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ١٤٨ ، شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة (زيغريد هونكه) : ١٤٣ . . . .